الفصل السابع عشر

العباسيون

(تابع ماقبله)

١٧٠ — ١٩٨ هـ ، ٧٨٦ — ٨١٤ م

الرشيد والأمين

خلافة هرون الرشيد — أخلاقه — حكمه الزاهر — البرامكة — استقلال أفريقيا الذاتى — شؤون الدولة فى آسيا — ولاية العهد — الأمين والمأمون — تقسيم الإمبراطورية — سقوط البرامكة ونكبتهم — جان دارك العرب — الحروب البيزنطية — خيانة نيقوفور — هزيمته — عقد معاهدة جديدة — الدولة البيزنطية ونقضها شروط المعاهدة — وفاة الرشيد — مبايعة الأمين بالخلافة — أخلاقه — إشهاره الحرب على المأمون — طاهر يهزم جيش الأمين — حصار بغداد — مكة والمدينة يبايعان المأمون بالخلافة

خلافة هرون الرشيد

تربع هرون الرشيد على كرسى الخلافة على أثر وفاة أخيه طبقاً لوصية المهدى ، بعد أن كان «جعفر بن الهادى» قد تنازل عن جميع حقوقه فى العرش . ولا مشاحة أن عهد الرشيد يعتبر ألمع عهود الحكم العربى فى آسيا ، وأن قصص ألف ليلة وليلة قد أسبغت على هذا الخليفة المشهور ثوباً قشيباً من الفتنة والخيال . وكان من عادته أن يجوس فى جنح الظلام فى شوارع بغداد وأزقتها ليتفقد أحوال الرعية ويقيم العدل ، ويغيث الملهوف وينصف المظلوم . ولو أننا نزعنا عن الرجل الحقيقى ثوب الخيال لظل مع ذلك فتنة العصور ومثار إعجاب الأجيال كحاكم من أعظم حكام العالم شأناً وأسماهم مكانة ، إذ كان محافظاً على تكاليف الشرع ، عفيفاً زاهداً محسناً ورعا ، حريصاً كل الحرص على أن يحيط نفسه بهالة من العظمة والجلال . ويمكننا أن نقول إن شخصيته الفذة أثرت تأثيراً

بليغاً فى عقول العامة ، وسرت فى الحياة الاجتماعية مسرى النار فى الهشيم حتى طبعتها بطابعها الخاص ، كذلك كان جنديا ماهراً بالفطرة والممارسة ، وكثيراً ما قاد الجيوش بنفسه وتوغل فى أنحاء الإمبراطورية ليهيمن على قمع الفتن والثورات . وقد كان علاوة على ذلك يزور المدن ليقف على أحوال الرعية وشؤونها ويفتش الحصون والممرات ، ولم يتردد قط فى بذل قصارى الجهد فى خدمة البلاد وتحصين الحدود وحمايتها من هجمات الأعداء ونشر الأمن فى أنحاء الإمبراطورية ، فتمتع فى ظله التجار وطلاب العلم والحجاج بنعمة الطمأنينة والعدل . وليس أبلغ فى الدلالة على تعلق الرجل بشعبه وتفانيه فى خدمته من تلك المساجد والكليات والمدارس والمستشفيات والمنازل والطرق المعبدة والجسور وشبكة الجداول المبثوثة جميعها فى أنحاء البلاد ، ولم يبزه فى تشجيع العلوم والآداب سوى ابنه «المأمون» ولكن ليس ثمة من يضارعه فى متانة الخلق وحدة الذكاء . ومع أن أيام حكمه لم تخل من المساوئ التى تنجم عادة عن حصر السلطة المطلقة فى شخص الحاكم — سوى عهد المأمون — فإن رفاهية الشعب وارتقاء المدنية وتقدم الفنون فى عهده على نحو لم يسبق له مثيل يعوض كثيراً عن مساوئ الحكم المطلق .

البرامكة

ويعزى معظم شهرة «الرشيد» فى الإدارة إلى كفاية الوزراء ومقدرة الموظفين الذين وثق بهم ووكل إليهم مهام الدولة خلال السبع عشر سنة الأولى من حكمه . وقد سبق أن أشرنا إلى المركز الممتاز الذى كان « خالد بن برمك » يتمتع به فى عهد السفاح والمنصور ، وإلى انتخاب ابنه يحيى أمير أرمينيا ليكون مربياً للرشيد الذى ما إن بلغ سن الرشد وبويع بالخلافة حتى ولى مربيه السابق منصب الوزارة . وكان الرشيد يناديه : يا أبت ! دلالة على الحب والوفاء ويستشيره فى جميع الأمور ، كما منحه سلطة مطلقة لتصريف أمور الدولة بالحكمة والعدل ؛ وكان أبناء يحيى الأربعة : « الفضل » و « جعفر » و « موسى » و « محمد » على جانب عظيم من المقدرة السياسية والحنكة الإدارية العالية ، فولى الخليفة الفضل خراسان ثم مصر

ولما أخضع يحيى بن عبد الله[1] الديلم استعمله عليها ، وأسند إلى جعفر إمارة عدة ولايات ، والمعروف أنه عند ما نشبت العصبية القبلية بين مضر وحمير فى الشام عهد إليه بإدارتها فقمع الفتنة وحكمها بنجاح عجيب . وعلى الجملة استطاعت هذه الأسرة المشهورة أن تحكم الإمبراطورية الإسلامية سبع عشرة سنة بكل نزاهة وإخلاص ؛ ولكن تدهورها السريع وانهيار دعائم مجدها يفسر لنا ناحية من نواحى المؤامرات والدسائس التى كانت تحاك فى ذلك العهد حول أصحاب الشأن وتكشف لنا عما تؤدى إليه الوشايات فى الحكومات المستبدة .

بلاد أفريقيا سنة ٧٨٦ — ٨١٤ م

ذكرنا فيما سبق أن بلاد التلمسان انفصلت عن الإمبراطورية العباسية وأن أمراء أفريقيا قاموا بعدة محاولات لإعادة احتلال غربى أفريقيا ، ولكنهم كانوا يبوءون فى كل مرة بالفشل الذريع ، و بقيت أفريقيا فى قبضة يزيد بن الهيثم المهلبى حتى توفى سنة ١٧٠ هـ ، ثم بدأت تعصف بها ريح الثورة حتى قيض لها أخوه « روح » الذى عينه الرشيد حاكما عليها سنة ١٧١ هـ ، ولكنه توفى بعد مضى سبع سنين على حكمه . ويقول لنا المؤرخ العربى إنه لما تمرد الجيش على ابن « روح » وأعلن عصيانه سارع الرشيد إلى إرسال « الهرثمة » أحد القواد المشهورين لقمع الفتنة ، فاستتبت له الأمور وحكم البلاد نحواً من ثلاث سنوات وعلى أثر استقالته عين الرشيد مكانه عاملا آخر برهن على عجزه عن الحكم . وقد كانت أفريقيا إلى ذلك الحين تستنفد معظم موارد الدولة فكانت مصر تدفع ١٠٠ ألف دينار سنويا من مواردها الخاصة لسد عجز ميزانية حكومة أفريقيا ، فعرض إبراهيم بن الأغلب على الرشيد استعداده لدفع ٤٠ ألف دينار سنويا إلى حكومة بغداد إذا جعل حكمها وراثيا فى أسرته ، وقد أشار الهرثمة — الذى كان عليما بشؤونها وبالصعوبات التى تجابهها الحكومة — على الخليفة بالقبول فأجابه فى الحال إلى طلبه ، وبذلك أصبحت أفريقيا إمارة شبه مستقلة .

(١) حفيد الحسن .

١٧٠ـ١٩٨هـ
شؤون آسيا

أما فى آسيا فكانت الأمصار فيها تدار بعزم وهمة على أسس ثابتة .

وفى سنة ١٧١ هـ ألحقت كابول وسنهار بالإمبراطورية العربية وامتدت حدودها إلى كوش الهندوسية ، وفى نفس الوقت فصل الرشيد « سواحل » آسيا الصغرى عن الإمارة الأصلية وأطلق عليها اسم العواصم ، كما عين لها حاكما عسكريا خاصا يقيم فى طرسوس بكيليكيا .

١٧٣ هـ — ٧٨٩ م

وفى تلك الأثناء توفيت الخيزران أم الرشيد ، وبموتها فقد يحيى بن خالد البرمكى عضداً قويا طالما أعانه على الاحتفاظ بنفوذه على الخليفة وشد أزره فى خدمة مولاه بالنزاهة والإخلاص ، وكان الرشيد قد أعاد إلى أمه فى مستهل حكمه جميع الامتيازات التى كانت تتمتع بها فى عهد زوجها المهدى والتى حرمها منها الهادى ، فأصبح قصرها مثابة يقصدها الأشراف وأصحاب الحوائج ، ولكن لم يلبث الرشيد بعد وفاتها بقليل أن أخذ الخاتم من يحيى وأودعه إلى الفضل بن الربيع الذى بدأ نجمه يتألق فى ذلك العهد .

أخذ البيعة لمحمد الأمين بولاية العهد ١٧٥ هـ — ٧٩١ م

مبايعة المأمون بولاية العهد

وفى سنة ١٧٥ هـ وافق الرشيد بتأثير الملكة « زبيدة » وإلحاح أخيها « عيسى بن جعفر » وتشجيع جميع أفراد الأسرة الهاشمية على أن يولى ابنه محمداً — الذى لم يكن قد ناهز الخامسة بعد — ولاية العهد ولقبه بالأمين . كذلك بايع بعد سبع سنين ابنه الآخر عبد الله المأمون ، ثم الابن الثالث القاسم ولقبه بالمؤتمن ، على أن تكون ولاية العهد لهم بالتتابع . وكان من المقرر أن يقتسم الأبناء الثلاثة الإمبراطورية بعد وفاته ، فيكون المغرب للأمين ، والمشرق للمأمون ، والجزيرة والعواصم للقاسم ، وكان « الرشيد » يعتمد على المأمون فى تنفيذ الوصية بحيث وكل إليه أمر عزل « القاسم » من ولاية العهد إن رأى ذلك مناسبا ؛ كذلك كان قد اختار جعفر بن يحيى لتأديب المأمون وتثقيفه ، بينما وكل تربية القاسم إلى ابن عمه « عبد الملك بن صالح » .

٧٨٦ـ٨١٤م

وفى سنة ١٨٦ هجرية حج « الرشيد » الحرمين الشريفين مستصحبا « الأمين »

٨٠٢ م

و « المأمون » ، وهنالك علق الوثيقتين بولاية العهد على الكعبة ، وقد كتب إحداها الأمين بخطه إذ أحس الرشيد منه الغدر وعدم الثبات ، ولهذا رأى أن يربطه بأخطر المواثيق كى لا ينقض عهده مع أخيه .

حج الست زبيدة

كذلك حجت « الست زبيدة »[1] فى تلك السنة ؛ ويقال إنها عند ما شاهدت ما يعانيه أهل مكة من المشاق فى الحصول على ماء الشرب أمرت بحفر عدة آبار[2] على نفقتها الخاصة ، ولا يزال اسمها يطلق على تلك الآبار إلى اليوم إحياء لذكرى تلك الزيارة .

١٨٣ـ ٧٩٩م ثورة الخزر

وفى سنة ١٨٣ هـ ثار أهل الخزر بتحريض من البيزنطيين الذين كانوا قد عقدوا معهم شبه تحالف ، فأغاروا على أرمينيا من الشمال وعاثوا فى البلاد وأعملوا السيف فى رقاب السكان الآمنين ومثلوا بهم على نحو لم يسبق له مثيل قط ، فأسرع الرشيد إلى إنفاذ حملات قوية على رأسها قائدان من أقدر قواده لتأديب هؤلاء البرابرة والانتقام منهم ، ويلوح أن الإجراءات التى اتخذها الجيش العربى مع المغيرين كانت بالغة حد القسوة والرعب .

وفى تلك السنة توفى الإمام «موسى الكاظم» ويقول ابن الأثير فيه : « إنه عرف بهذا اللقب لصبره ودماثة خلقه ومقابلته الشر بالإحسان » ، وكان محبوباً محترماً من جميع أهل المدينة ؛ بيد أن الرشيد ، وكان قد ورث عن جده الارتياب ، خشى أن يخرج عليه فأتى به إلى بغداد وسلمه إلى أخت « السندى ابن شاهق » تلك المرأة الفاضلة التى عاملت سجينها بالعطف والاحترام ، وقد حدث مرتين أن سمح الرشيد لهذا الإمام الوديع بالرجوع إلى الحجاز ، ولكن

---

(١) قال الشيخ أبوالفرج بن الجوزى فى كتاب الألقاب : « إنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار ، وإنها أسالت الماء عشرة أميال بخط الجبال ونحت الصخر حتى غلغلته من الحل إلى الحرم ، ولقبها جدها « أبو جعفر المنصور » زبيدة لبضاضتها ونضارتها » . (المعرب)

(٢) يقال إن نفقات الحفر بلغت حوالى المليون ونصف المليون دينار .

شكوكه كانت فى كلتا المرتين تتغلب على طيبة قلبه فيبقيه فى الحبس حتى ساءت صحته ، وقد توفى فى منزل سجينته ، وخلفه ابنه على المسمى بالرضا ، ولعله كان أثقف أبناء عصره وأبعدهم شأواً فى الفقه والآداب . وقد عرفت سنة ١٨٧ بذلك الحادث المشؤوم الذى لم يقلل من رونق عهد الرشيد فحسب ، بل ظل مشاراً لتأنيب ضميره وتعذيب وجدانه على جحود خدمات أسرة البرامكة الموهوبة التى أخلصت لعرش الخلافة طوال ١٧ سنة .

نكبة البرامكة فى سنة ٨٠٣ م

لاشك أن الشعب كان يتمتع فى عهد تلك الأسرة السيئة الطالع بسعة العيش والرفاهية ، كما كثرت فى أيامها أموال الدولة ، وازدادت الثروة الأهلية زيادة عظيمة ، وزهت الفنون ، وارتقى مستوى الحياة فى كل مكان ، غير أن الشأو البعيد الذى بلغته فى العظمة والجلال ، وما اشتهرت به من الإحسان جعلها معبودة الشعب مما ألّب عليها الأعداء الذين عقدوا النية على التنكيل بها . ٧٨٦ـ٨١٤ م ويقال إن ثمة باعثاً آخر يعزى إليه نكبة البرامكة ؛ ولكن ابن خلدون محص تلك الإشاعات التى ذاعت فى ذلك الحين ، ويظهر أن بعضها كان مختلقا من أساسه لتبرير جحود الرشيد ونكرانه الجميل ؛ ودليل ذلك أن ابن خلدون سخف حكاية زواج جعفر بن يحيى من العباسة أخت الرشيد ، ويقول إن السبب الحقيقى لنكبتهم هو « أنهم كانوا قد قبضوا على ناصية الأمور كلها ، وتصرفوا بأموال الدولة دون رقيب ، حتى أصبح الرشيد يطلب المبالغ الصغيرة فلا يجدها إلا بإذن من الوزير » ، وهكذا عظم نفوذهم وذاعت شهرتهم ، وأصبحت مناصب الجيش الكبرى والإدارة وقفاً على أفراد أسرتهم أو المقربين إليهم ، فتوجهت إليهم الأنظار ، وعنت لهم الرقاب ، وتعلقت بهم الآمال ، وغمروا الناس بالإحسان فى كل مكان ، فغدوا ملء الأبصار والأفواه ، حتى أصبح لا حديث للناس غير حديثهم ، وتضاءل اسم الخليفة إزاء اسمهم ؛ ولا ريب أن عدوهم اللدود « الفضل ابن الربيع » انتهز هذه الفرصة وأخذ يحرك السعاة للسعى بهم عند الرشيد ،

وكان يساعده فى ذلك بعض أقربائهم الذين نسوا أو تناسوا روابط الرحم وأوشاج الدم ، فأسروا إليه بأن أسرة يحيى تدبر مكيدة للقضاء على « بنى العباس » ، مؤثرين مصلحة العلويين على مصلحته ، فاشتبه فيهم الرشيد ، وظن فيهم شتى الظنون دون أن يرعى حرمة الوفاء ، أو يقدر جليل خدماتهم خلال تلك السنون الطوال . وفى ذات ليلة سيئة الحظ صمم الرشيد نهائيا على قتل جعفر وسجن يحيى وبقية أولاده : الفضل «ربيب الرشيد» ، وموسى ومحمد ، فأوعز إلى مسرور الذى كان يصحبه دائما فى جولاته الليلية بقتل « جعفر » ، وزج الآخرين فى سجن الرقة ، كما صادر أموالهم ، ولكنه لم يعاملهم فى بادئ الأمر بالشدة بل كان يسمح لهم بالتمتع ببعض أسباب الراحة ؛ غير أن وزيره الجديد أفضى إليه بأن « عبد الله بن صالح » عم المهدى يتآمر على خلعه طمعاً فى الخلافة ، فلم يلبث الخليفة أن أمر بسجنه . وتقول لنا الرواية العربية إن هذا الوزير الحقود لم يكتف بالإيقاع بعبد الله فحسب ، بل راح يتهم البرامكة أيضاً بأنهم كانوا على علم بالمؤامرة رغم كونهم لم يساهموا فى تدبيرها ، فاشتد سخط الرشيد عليهم ، وحرمهم من العناية التى كانوا يلاقونها فى بادئ الأمر . وهكذا أخذت هاته الأسرة البائسة التى تقلبت ردحا من الزمن فى أعطاف النعيم تشرب كأس العذاب دهاقا ؛ فتوفى يحيى « الوزير الأمين » فى السجن سنة ١٩٠ هـ ، ولحق به ابنه « الفضل » بعد ثلاث سنوات ؛ ويظهر أن موسى ومحمداً كانا قد فك سراحهما بعد موت أبيهما . بيد أن عبد الملك بن صالح [1] ظل فى حبسه حتى أطلقه الأمين واستعمله على الشام ؛ وعند ما اعتلى المأمون عرش الخلافة رد إلى البرامكة أموالهم ، وأعاد إليهم امتيازاتهم .

٨٠٦ م
وفاة يحيى البرمكى

وفى تلك الأثناء أضرم الخوارج كعادتهم نار الثورة عدة مرات ، لكن الرشيد كان يقمع حركتهم كل مرة دون صعوبة تذكر ؛ وتمتاز إحدى هذه الفتن

الخوارج

(١) حفيد على بن عبد الله بن العباس وابن عم المهدى .

جان دارك العربية

بظهور فتاة عربية اسمها « ليـلى » تزعمت حركة الثوار بعد مقتل أخيها « الوليد ابن طريف » أحد الزعماء الثائرين ، وتولت القيادة بنفسها ، واشتبكت مع جيش الرشيد فى معركتين داميتين حتى حملها أحد أقاربها على أن تلقى السلاح وتعود سيرتها الأولى ، وكانت وسيمة الطلعة ، رشيقة القوام ، تحفظ الشعر وتجيد نظمه إلى حد بعيد .

هدم أسوار الموصل

كذلك جنح أهل الموصل إلى الثورة فى ذلك الحين ، فغضب عليهم الرشيد وأمر بهدم أسوار مدينتهم عقاباً لهم على الشغب والتمرد ، ولما كان يعلم حق العلم بما يكنه أهل الشام له ولأسرته من المقت والبغضاء ، أخذ يثير العصبية القبلية من حين لآخر بين المضريين والحميريين كى يضعف بذلك شوكتهما ثم ينكل بهما أروع تنكيل بحجة توقيف الشغب و إطفاء لهيب الثورة .

الحروب مع جيش الروم

غير أن حروب الرشـيد مع الروم كانت أهم الحادثات التى وقعت خلال حكمه وأدعاها إلى الاهتمام ، إذ أنهم أخلوا فى سنة ١٨٠ هـ بشروط المعاهدة التى كانت « أيرينى » قد عقـدتها مع المهدى وأغاروا على البلاد الإسلامية ، ولـكن جيش الخليفة هزمهم شر هزيمة فى معركة دموية رائعة ؛ ثم استولى على مدينة « مطاره » وأنقرة ، وأعاد احتلال قبرص بعد أن كانت قد تخلصت من نير العرب فى الثورة الأهلية ؛ كذلك أغار على جزيرة « كريت » ، ثم أعقب ذلك عقد اتفاقية جديدة تعهد فيها الروم بدفع الجزية وتبادل الأسرى ؛ وعندئذ بدت الدلائل واضحة جلية على أن هذا السلم ستطول مدته ، ولـكن لم يمض سوى قليل حتى سملت الملكة « أيرينى » القاسـية عينى ابنها قسطنطين السادس سنة ١٨٢ هـ ، ونادت بنفسها ملكة باسم « أوغستا » ، وقبضت بمساعدة عشيقها الخصى « أوتيوس » على أعنـة الحكم خمس سنوات ، حتى ثار عليهـا الروم وخلعوها عن الملك ، ونصبوا وزيرها « نيكفورس »[1] خلفاً لها ، « فنكث الملك

١٨٢هـ ٧٩٢م

١٧٠–١٩٨

(١) ويسميه العرب « نقفور » .

الجديد شروط الاتفاقية المعقودة بين المسلمين وأيرينى »[1] ، وأرسل إلى الرشيد رسالة بذيئة يقول فيها : « من نقفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب . أما بعد فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها ، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابى فأردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك » . ويقول المؤرخ العربى : إن الرشيد عندما قرأ هذا الكتاب غضب غضباً شديداً بحيث لم يجرؤ أحد على النظر إليه أو التفوه بكلمة فى حضرته ، كما تفرق جلساؤه وترك وزراؤه المجلس صامتين ، وما هى إلا أن طلب الخليفة قلماً ومحبرة وكتب على ظهر الكتاب ما يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم . من هرون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام » . وقد بر الخليفة بوعده وشخص من يومه على رأس جيشه حتى وصل إلى « هرقلة » إحدى قلاع الدولة البيزنطية ، حيث تقابل الفريقان فدارت بينهما معركة[2] رائعة أسفرت عن هزيمة الروم هزيمة منكرة (ولا يعزب عن البال أن خفة حركة المسلمين فى ميدان القتال لم يكن ليعوقها شىء غير فنون الخداع وتوبة الأعداء) ، فتوسل « نقفور » إلى الخليفة أن يقبل الصلح على خراج أكثر من الخراج السابق يؤديه كل سنة ، فأجابه الخليفة إلى طلبه وعاد إلى « الرقة » . ولكن لم يكد يمضى طويل وقت حتى نقض « نقفور » العهد ظنا منه أن الخليفة قد يعجز عن الوصول إليه فى مثل ذلك الموسم ، غير أن الخليفة لم يكد ينتهى إلى مسامعه هذا الخبر حتى كر راجعاً ، ولشد ما دهش نقفور من تلك المفاجأة ومن مخاطرة أمير المؤمنين فى ذلك الشتاء القارس ، وتمكنه من عبور جبال طوروس

---

(١) ابن خلدون .

(٢) يسميها السيوطى « معركة فاصلة ونصراً مؤزراً » .

المكسوة بالثلوج ، وفى الحال أسقط فى يده وفرّ من المعركة بعد أن أصيب بثلاثة جروح تاركا وراءه أشلاء ٤٠ ألف قتيل فى الميدان[١] . غير أنه عاد وطلب الموادعة فلم ير الخليفة بأساً فى تلبية طلبه متخذاً هذه المرة جميع الاحتياطات الضرورية لمنع تكرر هذا الغزو ، كتشييد القلاع وإقامة الحاميات القوية . بيد أن « نقفور » برغم كل هذه الإجراءات « ما كاد يبلغه خبر اشتباك العرب فى القتال فى ميدان آخر حتى نكث العهد ، ولكنه لم يلبث أن مُنى كعادته بالفشل المريع[٢] » .

وفى سنة ١٨٩ هـ زحف « الرشيد » على الرى[٣] ليؤدب أميرها الذى خرج عليه ، فانتهز إمبراطور الروم هذه السانحة وأغار على حدود الإمبراطورية العربية ، ولكن « القاسم بن الرشيد » — قائد الجيش العربى فى آسيا الصغرى فى ذلك الحين — صده عن زحفه وأوقع به شر إيقاع .

وبينما كان الرشيد مقيما فى الرى حظى بمقابلته رؤساء الديلم وطبرستان فعاملهم بكل رعاية وإنصاف ، وبذلك اكتسب حبهم ، ثم قفل راجعاً إلى بغداد فى طريقه إلى الرقة التى أصبحت فى ذلك الحين مقره الدائمى حيث يتمكن من مراقبة حركات الروم وعشائر الشمال وقبائل الشام . وقد ظن أنه يستطيع بعد ذلك الجهد المضنى أن يخلد إلى الراحة والسكينة ، غير أن الروم لم يتيحوا له قط الفوز بأمنيته ، إذ لم تكد عشائر ماوراء النهر تعلن عصيانها حتى اجتاح « نقفور » الحدود الإسلامية مرتكبا أروع ضروب السفك والتخريب ، فلم يستطع الرشيد ١٧٠ـ١٩٨ هـ

---

(١) غيبون .

(٢) موير .

(٣) وهى الآن أطلال على مسافة خمسة كيلومترات من طهران ، تعرف باسم مشهد ، ولد فيها هرون الرشيد ، وهى وطن محمد بن زكريا الرازى الطبيب الذى اشتهر فى القرن الثالث الهجرى بالطب والكيمياء ، وفخر الدين الرازى صاحب مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير .
(المعرب)

السكوت على هذه الخيانة ، وفى الحال أناب المأمون عنه فى « الرقة » وسار لتوه إلى الشمال على رأس جيش كبير . وقد تطورت الحرب هـذه المرة إلى جهاد مقدس فى سبيل المحافظة على السلم وإرغام الروم على احترام المواثيق والعهود ، فانضوى تحت لوائه ١٣٠ ألف جندى اكتسح بهم آسـيا الصغرى حتى حدود « بيثينيا » شمالا و« ميسيا » و « كاريا » غربا ، وأخذت المدن تقدم إليه طاعتها الواحدة تلو الأخرى ، كما استولى « يزيد بن مخلد » على قونيا[1] وأفسوس ببلاد ليديا ، وأخضع « شرحبيل بن معن » سكاليا ودبسه ومالكوكيا وسيدارابوليس واندراسوس ونيقيا[2] ؛ وأحاط الجيش الظافر بهرقلة على البحر الأسود ثم استولى عليها بعد معركة رائعة مع نقفور . ولم يمض طويل وقت حتى طلب الروم — كعادتهم دائما — الصفح ؛ ومن الغريب أن الخليفة نزل هـذه المرة أيضاً على طلبهم ، ولو أنه أملى وقتئذ على الدولة البيزنطية شروطا أشد وطأة واحتل القسطنطينية لاستقر السلم العالمى فى ذلك الحين واستفادت المدنية فائدة عظمى . بيد أنه اكتفى بمعاهدة يوقعها « نقفور » وأشراف الإمبراطورية ، وهى تنص على زيادة الجزية التى شملت حتى الإمبراطور نفسه وسائر أفراد أسرته .

١٩٢هـ ٨٠٨م وفى سنة ١٩٢ أخل الروم بالاتفاقية ثانية ، وتوغلوا فى البلاد الإسلامية ، ويقول موير بهذا الصدد : « كانت نتيجة تلك الحروب الطاحنة كنتائج غيرها من الحروب : استعار نار الكراهية الدينية » . وقد أرغمت الفتن التى نشبت فى خراسان وقتئذ الخليفة على السفر إلى المشرق ، فأرجأ إنزال العقاب بالروم إلى وقت آخر ، وعندئذ ترك « القاسم » فى الرقة مع « خريمة بن خازم » أحد القواد المشهورين وأناب عنه الأمين فى بغداد ، ثم سار إلى المشرق يصحبه ابنه المأمون ، وما كاد

---

(١) مدينة فى آسيا الصغرى ، وفيها قبر جلال الدين الرومى المعروف بمولانا والمنسوبة إليه الطريقة المولوية ، وكذلك قبر أفلاطون الحكيم . (المعرب)

(٢) لم يذكر المؤرخون العرب أسماء هذه المدن وقد استقيناها من تاريخ « ثيوفونيس » .

يصل إلى بلاد الفرس ويخترق سلسلة جبالها حتى أرسل أمامه ابنه المأمون إلى مرو على رأس فرقة من الجنود ، وأخذ هو يسير على مهل بالقوة الرئيسية . ولما بلغ قرية سندباد بالقرب من طوس[1] عاوده مرضه القديم الذى كان يشكو منه منذ غادر الرقة ، فدعا من كان بمعسكره من بنى هاشم وخاطبهم قائلا : « إن كل مخلوق ميت ، وكل جديد بال ، وقد نزل بى ما ترون ، وأنا أوصيكم بثلاث : الحفظ لأمانتكم والنصيحة لأئمتكم ، واجتماع كلمتكم . وانظروا محمداً وعبد الله فمن بغى منهما على صاحبه فردوه عن بغيه وقبحوا له بغيه ونكثه » ، ثم وزع الأموال والضياع على جنوده وأتباعه ، ولم يلبث بعد ذلك إلا يومين حتى توفى فى مقتبل العمر يوم السبت لأربعة خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٣ (٨٠٩ م) بعد حكم زاهر مدته ٢٣ سنة وستة أشهر .

١٧٠–١٩٨ هـ

١٩٣ هـ ٨٠٩ م

أخلاقه وحكمه

ومهما نمعن النظر فى « الرشيد » بمنظار النقد التاريخى نجده يحتل مكانا ساميا بين عظماء الملوك فى العالم أجمع ، ولكن من الخطأ أن نقارن بين الحاضر والماضى ، أو أن نقيس أخلاق وعادات هذا الجيل بما فيه من مدنية وما توصلنا إليه من رقى وتطور بصرامة الأخلاق والعادات التى كانت سائدة منذ عشرة قرون ؛ فإذا أخذنا كل ذلك بنظر الاعتبار تبين لنا أن نقائص الرشيد وشكوكه وسرعة انفعاله ليست إلا نتائج طبيعية للحكم الأتوقراطى .

وفى الواقع إن الصفات التى كان الرشيد متحلياً بها كضبط النفس والتفانى فى خدمة الشعب والاهتمام بمصالح الأمة — برغم السلطة المطلقة التى كان يمارسها — تعتبر فضائل ترجحه على أنداده وقرنائه ، وتنهض دليلا قويا على نبوغه . وقد أجمع المؤرخون على أنه لم يتوان قط فى أداء الواجب ، ولطالما قطع أنحاء

---

(١) عاصمة بلاد خراسان قديماً ، وفيها ولد الفردوسى الشاعر الفارسى المشهور ، وكذلك ولد فيها أبو حامد الغزالى ، ونصير الدين الطوسى الفلكى الرياضى الفيلسوف .
(المعرب)

الإمبراطورية من الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب ، لإصلاح المساوئ الفاشية وقمع الفتن والقضاء على الأخطاء ، والاطلاع بنفسه على أحوال الرعية ؛ كما أقام للناس حجهم تسع مرات فى سنى حكمه ، فاكتسب حب الرعية ، وبث فيهم روح الجندية ، وكان بلاطه ألمع بلاط فى ذلك الحين ، وكانت الشعراء والعلماء والحكماء يفدون عليه من كافة أنحاء المعمورة فيوليهم جميعاً عطفه وتشجيعه ، كذلك كان أول من وضع الموسيقى تحت رعايته ، فارتقت فى ظله حتى أصبحت مهنة شريفة لا تقل شأنا عن مثيلاتها من المهن الحرة الأخرى .

٧٨٦ـ٨١٤ م

المذهب الحنفى

وفى عهده كذلك طفقت المدرسة الحنفية تتطور حتى اكتسبت شكلها النظامى على أيدى علماء الدين وعلى رأسهم أبو يوسف قاضى القضاة ، ومع أن هذا المذهب يعرف بالمذهب الحنفى إلا أنه فى الواقع من وضع قاضى قضاة « هرون الرشيد » . وقد كان أبو يوسف يجمع إلى ليونة كرامر (Crammar) شره بيكون (Bacon) ، ولا يعرف على وجه التحقيق لماذا لم يكتسب هذا المذهب يومئذ تلك الصرامة التى عرف بها فى العصور المتأخرة ، وهل يعزى ذلك إلى أنه كان لا يزال فى جدته وطفولته ، أو لأنه لم يكن قد اصطدم بعد بالعناصر المعارضة .

إن مدى إصرار أى مذهب فى فرض أحكامه يختلف باختلاف العناصر التى يتنازع معها ، وقد كان هذا النظام وقتئذ بالرغم من ازدياد الميل إلى الاجتهاد يتمتع بخاصية المرونة وقابلية التطور ، كما ثبت ذلك فى عدة ظروف ، بيد أن الاهتمام العظيم الذى أظهره الرشيد نحو العلماء والأهمية التى كان يعلقها على فتاويهم ، كل ذلك مهد السبيل إلى تأسيس سلطة من العلماء الدينيين الذين ازداد نفوذهم فى عهد الخلفاء الضعفاء[1] .

العلوم والآداب

وسع الرشيد دائرة الترجمة التى كان جده المنصور قد أنشأها لنقل العلوم

---

(١) يلاحظ أننا حذفنا هنا عدة عبارات لظروف خاصة رغم أننا نؤثر المحافظة على الأصل . (المعرب)

من اللغات الأجنبية إلى العربية كما زاد عدد موظفيها ، وإن كانت لم تبلغ الشأو العظيم الذى بلغته فى عصر المأمون . ومما هو جدير بالذكر أنه تألق فى عصره أنجم عدد من العلماء أمثال الأصمعى النحوى المشهور الذى كان الرشيد قد وكل إليه تثقيف أبنائه ، والشافعى أبو عبدالله بن إدريس ، وعيسى بن يونس ، وسفيان بن الصورى ، وإبراهيم الموصلى المغنى المشهور ، وجبريل بن بختيشوع . ويقول ابن خلدون : إن الرشيد اقتفى أثر جده فيما عدا الشح والبخل إذ لم يكن يبزه إنسان فى الكرم والسخاء .

كان الخليفة نفسه شاعراً محبا للعلم مكرما للشعراء ، وفى عهده افتتحت المكاتبات مع الغرب والشرق الأقصى ، كذلك كان أول من استقبل السفراء من ملك الصين وشرلمان ؛ ولا تزال الساعة[1] والهدايا الأخرى التى أهداها إلى الأخير موضع الدهشة ، ومثالاً حيا لما وصل إليه الفن الإسلامى فى ذلك الحين من الإتقان والإبداع . وقد اشتهر أربع من أولاده فى التاريخ وهم : محمد الأمين ، وعبد الله المأمون ، والقاسم المؤتمن ، وأبو إسحق محمد المعتصم .

محمد الأمين ١٩٣ـ١٩٨هـ ٨٠٩ـ٨١٣م

ولما توفى الرشيد كان الأمين ببغداد والمأمون بمرو والقاسم بقنسرين ، والست زبيدة فى الرقة ، فبعث صاحب البريد خبر وفاة الخليفة إلى بغداد ، وفى اليوم التالى أرسل « صالح » الذى كان حاضراً وفاة أبيه خاتم الخلافة وقضيب النبى (ص) والبردة إلى أخيه الأمين الذى توجه فى الحال من قصر الخلد ، حيث كان يقيم ، إلى قصر الخلافة ، فصلى بالناس وألقى الخطبة التقليدية ، وتقبل البيعة من قواد الجيش والأشراف والموظفين ، كذلك كان المأمون قد أرسل كتاباً إلى أخيه بالتهنئة مع بعض الهدايا .

---

(١) صنعت تلك الساعة بدقة فنية عظيمة ، بحيث كانت تدق عند نهاية كل ساعة زمنية بواسطة كرات تتساقط على لوح نحاسى ، وكان يخرج عدد من التماثيل الخيالة حسب عدد الدقات من باب يفتح فجأة ، وبعد أن يختفى الصوت كانت تعود أدراجها ويقفل الباب وراءها .

وحالما أذيع خبر وفاة الخليفة أسرعت الست زبيدة إلى بغداد . وتقول لنا الرواية إن ابنها الأمين خف إلى استقبالها فى الأنبار بمنتهى الأبهة والجلال ، وأنزلها معه فى قصر الخلافة حيث ظلت تعيش بجانبه إلى أن لاقى حتفه .

أخلاق الأمين والمأمون

حقيق بنا فى هذه المرحلة أن نقارن بين أخلاق الأخوين الأمين والمأمون اللذين لم يلبثا أن تصرمت بينهما حبال الود والإخاء ، وأضمر الواحد للآخر البغض والعداء ؛ و إنا إذا استقصينا نشأتهما وجدنا أنهما قد تلقيا العلم على أيدى أشهر علماء العصر ، فتربى الأمين فى حجر أمه ، وترعرع فى كنف خاله . أما المأمون ، الذى توفيت أمه الفارسية وهو لا يزال طفلا ، فقد اعتنى بتهذيبه جعفر البرمكى .

١٧٠–١٩٨هـ

استمد الأخوان علومهما وثقافتهما من معين واحد ، فدرسا العلوم الشائعة فى عصرهما ، وهى البلاغة والشعر والتاريخ والفقه والحديث ؛ ولكنهما من حيث الاستعداد العقلى كانا يختلفان الواحد عن الآخر اختلافا بيناً ، إذ بينما كان المأمون يستوعب كل ما يلقى عليه من الدرس و يلتهمه التهاما ، كان الأمين محبا للهو ، لا يتأثر بما يلقى عليه إلا تأثيراً سطحيا ؛ بيد أن كليهما أتقنا — برغم ذلك — الخطابة التى كانت تعتبر من أميز ميزات الأمير العربى ؛ وكان المأمون فوق ذلك متفقهاً فى علوم الدين ، ملما بأصول التفسير والحديث ، حافظاً للقرآن الكريم ، يجيد تلاوته و يفهم معانيه . وكان الرشيد بثاقب فكره و بعد نظره يدرك الفرق جليا بين خلقيهما وتفاوت صفتيهما ، ولعله توقع نتيجة الإجراءات التى اتخذها والعناية التى رعاهما بها ، فأشهد الحاضرين على أن يكون الجيش الذى أرسله إلى خراسان وما معه من مال وسلاح وآلات تحت إمرة المأمون ، يتصرف فيها كيف شاء للدفاع عن الولايات الشرقية ، كما منح الأمين الكنوز العظيمة التى خلفها له فى بغداد ؛ ولكن الدلائل كانت تنذر بأن الأمين قد بيت لأخيه وعقد النية على الحنث بميثاق أبيه .

خيانة الفضل ابن الربيع

وعلى أثر وفاة الرشيد انحاز الفضل بن الربيع الذى كان لايزال فى منصب الوزارة منذ نكبة البرامكة إلى الأمين ، إذ كان يعرف فيه ضعف الإرادة والاستهتار بالحكم ، ولاسيما أنه كان يطمح من وراء ذلك إلى القبض على ناصية الأمور ، فأقنع الجنود بنكث العهود التى كانوا قد قطعوها على أنفسهم للمأمون والعودة معه على جناح السرعة إلى العاصمة وعرض طاعتهم على الأمين ، فلما وفد « الفضل » على رأس الجيش ومعه الأموال التى اغتصبها من المأمون فرح به الأمين فرحاً عظيما ، وقلده منصب الوزارة كما وزع مرتبات سنتين مقدماً على الجنود .

٧٨٦–٨١٤م

أما المأمون فلم يلبث أن ألفى نفسه بعد خيانة الفضل بن الربيع مجرداً من القوة والمال ، وتحرج موقفه إلى درجة تدعو إلى العطف والرثاء ، وبخاصة عندما بلغه أن زعماء ولايته وشيوخها بدأوا يقلبون له ظهر المجن ، ويعلنون تمردهم وعصيانهم ، فشمر عن ساعد الجد وصرف همه إلى تهدئة خواطرهم وتسكين ثورتهم بالترغيب تارة والحسنى أخرى ؛ ومن حسن طالعه أنه حصل خلال تلك الأزمة على معاضدة مستشاريه الأكفاء الذين هرعوا إلى جانبه يمحضونه النصح وعلى رأسهم « الفضل بن سهل » ، ذلك الفارسى المشهور بسعة الحيلة وشدة الدهاء . وكان من أعوانه أيضاً « هرثمة » المشهور ، وطاهر بن الحسين الخزاعى القائد الطموح . ويقال إن المأمون عامل أشراف الولاية بالرعاية والاحترام وخفض الضرائب على اختلافها ، فحمدوا له عطفه وبره وأعلنوا طاعتهم له ، والتفوا حوله باعتباره أنه ابن شقيقتهم ، ومما يجلب الثناء عليه سلوكه الودى البعيد عن كل ريبة أثناء الخلاف بينه وبين أخيه .

تدبير الأمين

وفيما كان المأمون منهمكا فى تنظيم شؤون الولاية الوحيدة التى بقيت محافظة على ولائها له ، كان الأمين يسير بالبلاد سراعا إلى الخراب والدمار ، ويبذر الأموال ذات اليمين وذات الشمال فى سبيل الحصول على ولاء الجنود ، وجلب المضحكين

من جميع أنحاء الأمصار ، وشراء الجوارى الفاتنات والمغنيات الحسناوات . كذلك يقال إنه زاد فى عدد الخصيان الذين كانت تزخر بهم الدولة البيزنطية و يستخدمهم نبلاء روما الجديدة ، ليس فى حراسة النساء فحسب ، بل فى إدارة شؤون الدولة أيضاً . ويقول لنا المؤرخون إنه ذاع فى عهده ضرب جديد من اللهو وهو عبارة عن حفلات رقص كان الأمين يديرها بنفسه فى الأبهاء الملكية ، وكانت كل حلقة تتألف من مائة فتاة من أرشق الفتيات وأوفرهن جمالا ، وكن يظهرن فى تلك الليالى الساهرة بأبهى الحلل الموشاة بالقصب والمرصعة بالجواهر الثمينة ، ومما كان يثير السرور والإعجاب أنهن كن يرقصن مجتمعات على أنغام الموسيقى الشجية بحركات إيقاعية ، ويتمايلن فى بطء رائحات غاديات ملوحات بسعف النخيل ، منحنيات تارة ومنتصبات أخرى فى دوائر تشعع عليهن الأضواء الساطعة . كذلك أمر الأمين بصنع خمس حراقات فى دجلة على هيئة الأسد والعقاب والحية والفرس والفيل . وكان يقضى جل أوقاته فى معاقرة الخمر والاستمتاع بضروب اللهو وارتشاف كؤوس الحب المترعة ، تطوقه الجوارى الحسناوات وتحيط به المغنيات الجميلات ، حتى عزفت نفسه عن السلطة وترك شؤون الدولة للفضل بن الربيع يتصرف فيها كيف شاء له الجشع البالغ حد الإفراط .

وفى تلك الأثناء قتل « نقفور » فى الحروب الطاحنة التى دارت بين الروم والبلغار ، وخلفه ابنه « استبرق » ثم ولى الحكم من بعده ميخائيل بن جرجس الذى تزوج من أخت الاستبرق ، و بعد قليل تنازل عن العرش للقائد « ليو » الذى لم يكد ينادى بنفسه ملكا على الروم حتى نقض شروط المعاهدة مع المسلمين وأغار على الحدود ، فى حين كان الأمين غارقاً فى لهوه وعبثه دون أن يجد لنفسه متسعاً من الوقت للوقوف على أخطاء الحكام وكبار موظفى الدولة . وبدلا من أن يستخدم نشاطه و يستغل أموال الدولة فى سبيل الدفاع عن الإمبراطورية ، أخذ يناصب أخاه العداء و يعلن عليه حرباً شعواء .

أما الفضل بن الربيع وزير الأمين فكان يخشى مغبة عمله لو آل الأمر إلى المأمون ، ولهذا أخذ يحرض الأمين على خلع أخيه من ولاية العهد ، فلم يعره الخليفة أذناً صاغية فى بادئ الأمر ، ولكنه إزاء إلحاح وزيره وأحد المستشارين المسمى على بن عيسى بن ماهان — الذى لم يكن ليقل عن الفضل لؤماً ونفاقاً — قبل مشورتهما وأقدم على اتخاذ تلك الخطة المشؤومة . وفى الحال أرسل فى طلب المأمون الذى اعتذر عن المجئ بقوله : إن حالة الإمارة التى يحكمها لا تسمح له بتركها ، غير أن الخليفة استاء من هذا الرفض وأمر بخلعه ونهى عن ذكر اسمه على المنابر يوم الجمعة ؛ كما عزل القاسم من الإمارة التى كان الرشيد قد استعمله عليها .

الخلاف بين الأمين والمأمون ١٩٥ هـ — ٨١١ م

ويظهر أن الأمين لم يكتف بتلك الإجراءات الجائرة التى اتخذها ضد أخويه ، إذ بايع ابنه الطفل « موسى » بولاية العهد ولقبه « بالناطق بالحق » ومن بعده ابنه الثانى ولقبه « بالقائم بالحق » .

فأجاب المأمون على عزله من ولاية العهد بضرب حصار شديد على الحدود الغربية ، فلم يسمح لأى إنسان كائناً من كان بالدخول إلى ولايته دون فحصه واستجوابه ، خوفا من أن تتسرب إليها الكتب والدعايات المضرة التى قد تحرض الأهالى على التمرد والعصيان ، وبهذه التدابير اتسعت شقة الخلاف بين الأخوين ، فأرسل الأمين فى طلب الميثاقين المعلقين بالكعبة ومزقهما ، ثم بعث بخمسين ألف جندى بقيادة على بن عيسى بن ماهان إلى الرى حيث اقتتل الفريقان فى موقعة دامية ؛ وكان على رأس جيش المأمون طاهر بن الحسين الذى أوقع بجيش خصمه شر إيقاع ، ومزقه كل ممزق بعد مقتل قائده على بن عيسى ، فالتحق على أثر ذلك عدد كبير من جنود الأمين بطاهر بن الحسين ، الذى طير فى الحال خبر انتصاره إلى المأمون بعبارة موجزة تشبه عبارة « يوليوس قيصر » التى بعث بها عقب انتصاره إلى مجلس الشيوخ الرومانى قائلا : كتبت إليك ورأس « على

ابن عيسى » فى حجرى وخاتمه فى يدى ، وجنوده تحت إمرتى . و يقال إن الرسول قطع تلك المسافة البالغة ٧٥٠ ميلا فى ثلاثة أيام .

ولما انتهى خبر هذا الانتصار الباهر إلى مسامع الفضل بن الربيع شعر بزوال سلطته ؛ وفى الحال صادر مبلغ المائة ألف درهم التى كان الرشيد قد وهبها للمأمون قبل وفاته كما صادر جميع أملاك المأمون الخاصة التى كان قد تركها فى عهدة نوفل مربى الأخوين : الأمين والمأمون ، الأمر الذى حدا بالشعراء إلى هجو الخليفة الضعيف ووزيره الجشع . ويقال إن بطانة الأمين بعد أن أعيتها الحيلة اقترحت عليه أن يأخذ أولاد أخيه رهائن حتى يسلم نفسه أو يفتك بهم ؛ بيدأن الخليفة لم يستهجن هذا الرأى المخزى فحسب ، بل عاقب الذين اجترأوا على إبدائه بالحبس . ١٧٠–١٩٨هـ

ويقال إن الأمين رأى انقاذاً للموقف أن يبعث بعدة جيوش من بغداد الواحد تلو الآخر ، ولكنها جميعاً كانت تلاقى نفس المصير ، فاستطاع طاهر بن الحسين بعد إخضاع البقاع الجبلية أن يستولى على قزوين ، ثم سار فى طريقه مكتسحاً أمامه كل مقاومة حتى غشى حلوان واتخذها مقرا لجيشه ، ثم توجه صوب الأهواز ، بينما زحف « هرثمة » نحو الشمال .

مبايعة المأمون بالخلافة

وقد بايع أهل فارس « المأمون » بالخلافة ، وعلى أثر ذلك تقلد الفضل بن سهل الإدارة العليا من حدود التبت إلى همذان ، ومن المحيط الهندى حتى بحر قزوين ؛ فجمع بذلك بين الرئاستين رئاسة الحرب ورئاسة الخراج ، كما أسند إلى « على بن هشام » منصب وزارة الحرب ، وولى شؤون إدارة الدخل « نعيم بن كاظم » مع « حسن بن سهل » كمساعد له .

و بينما كانت تلك الحوادث تقع سراعا فى الشرق أضرم « على بن عبد الله »

٧٨٦ـ٨١٤م

أحد أحفاد معاوية[1] الأول نار الثورة مدعياً لنفسه بالخلافة ، كذلك ظهر له منافس آخر هو حفيد « مسلمة » ؛ بيدأن أصحاب هذين الثائرين وأتباعهما تخلوا عنهما ، وتفرقوا من حولهما كما اختفى صاحبا الدعوة بالسرعة التى ظهرا بها .

لم يمض سوى قليل حتى استولى قائد « المأمون » على الأهواز واليمامة والبحرين وعمان ، ثم توغل شمالا واحتل واسط فأثرت سرعة انتقاله وخضوع الموانىء الواقعة على الساحل تأثيراً قويا على البلدان الأخرى ، إذ اعترف « العباس ابن الهادى » عامل الأمين على الكوفة بسلطة المأمون ، وحذا حذوه « المنصور بن المهدى » عامل البصرة ، ثم « داود بن عيسى »[2] أمير الحرمين ، فعاملهم المأمون جميعاً بكل رعاية وعطف وأقرهم فى مناصبهم . ومن ثم زحف « طاهر بن الحسين » نحو الشمال بعد أن استولى على المدائن التى كانت لا تزال موقعاً حربيا هاماً ، وظل يواصل سيره متجها نحو العاصمة . وفى الوقت نفسه كان « المسيب بن زهير » قد وصل إلى بغداد فاشترك القواد الثلاثة فى حصار المدينة حيث عسكر طاهر بباب الأنبار ، ونزل هرثمة نهربين إحدى فتحات النهر ، واستمر الحصار عدة أشهر استنفد فيها الأمين جميع أموال الدولة التى كان يوزعها على جنوده و بطانته ذات اليمين وذات الشمال ، ثم أمر بضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم ووزعها عليهم . ويقال إن بغداد أصيبت فى أثناء ذلك الحصار بأضرار جمة ، إذ أخذ الفريقان المتحاربان يهدمان القصور والدور العامرة التى كانت تعترض حركاتهما الحربية ، فخل بنصف المدينة الخراب وتداعى بنيانه ، واشتدت نكبة السكان كما عظمت محنتهم حتى بلغت درجة لا تطاق ؛ فأخذ الأشراف والأعيان ينفضون من حول الأمين ، غير أن العامة وزعانف المدينة استمروا فى كفاحهم

حصار بغداد ١٩٧ هـ — ٨١٣م

---

(١) هو على بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية ، المعروف بالسفيانى وأمه نفيسة حفيدة العباس بن على الذى قتل مع الحسين فى موقعة كربلاء .

(٢) هو عيسى الذى حرمه المنصور من ولاية العهد .

بإصرار غريب ؛ ولكن ذلك لم يفده فتيلا ، إذ اضطر هو وأمه وأسرته إلى
١٧٠–١٩٨هـ الاعتصام بالمنصورية على الضفة الغربية من النهر ، وهنالك تجمعت عليه الإحن والشدائد . ولما تحرج الموقف اقترح عليه بعض مستشاريه القلائل الذين ظلوا بجانبه أن يفر إلى الشام ، غير أنه مال إلى التسليم على شرط أن يؤخذ إلى أخيه المأمون الذى كان يثق بحبه له ، وبدأت تسير المفاوضات على هذا الأساس ، غير أن « طاهراً » أصر على أن يأسره ؛ على حين كان الخليفة المنكود الحظ يأبى بشدة أن يسلم نفسه لذلك الأعور البغيض الذى لا يثق به ، ولكنه وافق نهائيا على التسليم إلى هرثمة أحد قواد أبيه الأمناء ، وقد تم الاتفاق بالفعل على أن يخرج الأمين إلى هرثمة ، بينما يدفع الخاتم والقضيب والبردة إلى « طاهر » فينال القائدان بذلك فخر إخضاع الخليفة وإذلاله . فلما خرج الأمين من قصره يريد التسليم استقبله هرثمة بكل احترام ورعاية ، وأمر الملاحين أن يسيروا بهما على جناح السرعة إلى معسكره ، ولكن الحراقة ما كادت تبتعد قليلا عن الشاطىء حتى رماها بعض جنود الفرس الأفظاظ بالحجارة الضخمة فانكسرت وانكفأت بهم ، وكاد هرثمة يلقى حتفه غرقا لو لم ينقذه أحد الملاحين ، فقبض بعض الجنود على كلا الأمين وقاضى المدينة وحملوهما إلى إحدى القلاع المجاورة .

مقتل الأمين ٢٣ محرم ١٩٨هـ ٨١٤ م

وكان الأمين يرتعد من شدة البرد فغطاه القاضى بعباءته . وفى منتصف الليل فتح رهط من الفرس باب الغرفة وهجموا على الأمين ، فحاول الدفاع عن نفسه بالوسادة التى كانت بيده ، ولكنهم ذبحوه ونصبوا رأسه فى صباح اليوم التالى على أسوار بغداد .

ولما علم المأمون بمقتل أخيه حزن حزنا شديداً ، إذ لم يكن يتوقع قط أن يؤدى بهما الخلاف إلى هذه النتيجة المحزنة ، فأمر بمعاقبة القتلة الآثمين ، ولأجل أن يعوض عن هذا الرزء الفادح تبنى أولاد أخيه ، كما عهد إلى الست زبيدة

أمر تربيتهم ، ولما أن بلغوا سن الرشد زوجهم من بناته . وقد مات أحدهم فى ريق صباه ، ومما يذكر للمأمون بالشكر أنه أبقى لعائلة الأمين جميع أموالهم وملكهم .

وهكذا قتل الأمين فى الثامنة والعشرين من عمره ، وكانت مدة خلافته المحفوفة بالأهوال والاضطرابات أربع سنوات وثمانية أشهر .

---

obeikandl.com